

رمزية اللون في ديوان " هذا الأزرق " لمحمد بنيس

رشيدة زعواطي

طالبة باحثة سلك الدكتوراه

جامعة بن طفيل – القنيطرة المغرب

r.rachida2015@gmail.com

ملخص البحث :

كيف يمكن للقصيدة العربية المعاصرة أن تجد لنفسها مكانا داخل الجغرافية الشعرية العالمية ؟ بأي لغة و بأي كتابة ستضمن شعريتها وحدثتها إلى جانب الشعرية العالمية ؟ بمثل هذه الأسئلة يمكننا مباشرة التفكير في مستقل القصيدة العربية المعاصرة. وهي الأسئلة التي تقوم عليها التصورات النظرية والإبداعية التي طرحها الشاعر المغربي محمد بنيس، منذ استشعاره المبكر بجرح الانتماء الشعري، وجرح المكانة التي كانت للشعر المغربي إبان ستينيات القرن الماضي. وظل الشاعر يعيد ويراجع صوغه الشعري والنثري لوضعية الشعر المغربي والعربي عموما. و ذلك عبر العديد من الدراسات والأعمال الشعرية، التي جمعت بين متعة الإبداع وبين القلق المعرفي الباحث عن الذات والعالم، وعن الكيفيات التي تمضي بكتابة القصيدة العربية، في حوض البحر المتوسط، نحو مستقبلها الكوني إبداعا وحدثا .

ولعل الشاعر الآن، يجدد الصياغة الشعرية في ديوان « هذا الأزرق » الصادر عن دار توبقال للنشر سنة 2015. جاعلا منه وقفة شعرية تأملية مستوعبة لمستجدات الزمن المعاصر و أحداثه الكونية، التي تفرض على القصيدة العربية، إن هي أرادت الحياة والانتساب إلى الشعرية الكونية، أن تتحرر وتقرر في شأن لغتها وطريقة كتابتها، باعتبارهما المدخلين القادرين على جر القصيدة نحو مستقبلها الشعري.

وبمعنى الضيافة والحوار الشعريين فكر الشاعر و أبدع، وبهما بدل وضعية الذات في اللغة والكتابة. فتمكن من الارتقاء بكتابة القصيدة إلى المدى المتداخل والمتنوع بالرموز والاستعارات والمعارف. ويدربنه الحسية في التخيل والتشكيل الاستعاري النادر، جعل من الأزرق أحد الأسرار البانية لجمالية اللغة والكتابة، بل أحد الأسرار الراحلة بالقصيدة نحو الفضاء الشعري العالمي. فكيف، إذن، تعانق مستوى التفكير في مستقبل القصيدة العربية بمستوى الإبداع اللغوي من خلال رمزية اللون الأزرق؟ وكيف انبثقت فكرة الضيافة والحوار الشعريين في لغة « هذا الأزرق » ؟

هذا ما أحاول الإجابة عنه صعبة قصائد « هذا الأزرق » معتمدة مبادئ المنهج السيميولوجي، باعتباره احد المناهج المساعدة على بناء جلاله النص الإبداعي. وذلك بالنظر في العلامات النصية والخارج- نصية. لقد اخترت للمقال عنوان :

رمزية اللون في ديوان (هذا الأزرق) لمحمد بنيس

الكلمات المفتاحية: الشعر ، الحدثا ، اللون الأزرق ، القصيدة ، الضيافة ، اللغة .

Abstract

How can the contemporary Arabic poem find a place within the global poetic geography? In which language and in which style will it ensure its modernity and poetic content besides international poetry? With such questions, we can directly think about the future of the contemporary Arabic poem. These are the questions on which the theoretical and creative perceptions are based presented by the Moroccan poet Mohamed Bennis, since his early awareness of the poetic affiliation wounding, and the wounding of the place of the Moroccan poetry during the sixties of the last century. The poet kept repeating and reviewing his poetic and prose formulations for the situation of Moroccan and Arab poetry in general. This was done through many studies and poetic works, which combined the pleasure of creativity with the cognitive concern which searches for the self and the world, and the ways that lead the writer of the Arabic poem, in the Mediterranean basin, towards its cosmic future, creatively and modernity.

The poet is now renewing the poetry formulation in the book “This Blue” issued by Toubkal Publishing House in 2015. Making it a contemplative poetic pause absorbing the developments of the contemporary time and its cosmic events, which impose on the Arabic poem, if it wants to live and affiliate to cosmic poetry, to liberate and decide about its language and method of writing, considering them as they are the two inputs capable of drive the poem towards its poetry future.

The poet thought and innovated within the meaning of poetic hospitality and dialogue, and with them he changed the place of the self in language and writing. He became able to elevate the writing of the poem to the intertwined and undulating range of symbols, metaphors and knowledge. Through his sensory skills in imagination and rare metaphorical formation, he made “This Blue” one of the structured secrets of the aesthetics of language and writing, and even one of the secrets left in the poem towards the global poetic space. How, then, does the level of thinking about the future of the Arabic poem embrace the level of linguistic creativity through the symbolism of the blue color? How did the idea of poetic hospitality and dialogue emerge in the language of “This Blue?”

This is what I am trying to answer with the poems “This Blue” adopting the principles of the semiological method, as one of the approaches to help build the majesty of the creative text, by looking at the textual and out-textual signs.

I have titled this article:

Color symbolism In "This Blue" by Mohamed Bennis.

Keywords: Poetry, contemporary, blue color, poem, hospitality, language.

مقدمة :

أود في هذا المقال الاقتراب من رمزية اللون الأزرق في ديوان « هذا الأزرق » للشاعر المغربي محمد بنيس. و هو من المتون الشعرية المعاصرة، التي انفردت بمتخيلها عن اللغة والكتابة الشعريتين، عاكسا قلق الشاعر واستمراره في البحث عن مستقبل للقصيدة العربية.

لم يكف محمد بنيس، وهو من أبرز الشعراء والمنظرين المؤسسين لسؤال الحداثة الشعرية، عن مراجعة مشروعه الشعري في ضوء مستجدات الزمن و أسئلته في الإبداع والكتابة، فهو الذي كتب متسائلا وموضحا ضرورة التغيير والإبدال الدائم في معنى الحداثة « إن الحداثة إقامة على حدود الخطر في زمن يتطلب معرفة نقدية مغايرة، لذلك نسأل : كيف يستحق الشعر العربي حداثة أخرى ؟¹ ». إن الديوان، من هذا المنظور، نفس شعري آخر، يجدد للغة الشعر وعدها وللكتابة طريقها نحو الشعرية الكونية. وذلك من خلال رمزية اللون الأزرق. فكيف، إذن، صاغ الشاعر تصوره الشعري والحداثة لمستقبل القصيدة من خلال رمزية الأزرق ؟

- الفضاء المتوسطي وجهة لكل حداثة شعرية مستقبلية

يستأنف الشاعر المغربي محمد بنيس تأملاته الشعرية بشأن مستقبل القصيدة العربية. واصلا التفكير بالإبداع، ومجددا للقصيدة رهانها، ولغة وعدها وإصرارها على الانتماء إلى الحداثة الكونية، ومقاومة كل معيقات هذا الانتماء. وذلك من خلال ديوان « هذا الأزرق » الصادر عن دار توبقال للنشر في طبعة أولى سنة 2015. يعيد الشاعر في هذا العمل تشكيل جغرافية الفضاء الشعري العربي المعاصر، الذي ستتخذ منه القصيدة العربية مقر سكنها وحضورها المستقبلي. ويقوم تشكيل هذه الجغرافية الشعرية على أساس سلسلة من الأبدالات المعرفية الخاصة بوضعية القصيدة في النظر و التصور كما في الممارسة.

تنطوي فكرة الوصول بالقصيدة العربية إلى العالمية على معنى الرحيل من فضاء عربي محدد ومميز بخصوصياته المعرفية واللغوية، وبهمومه المنغلقة على قضايا الهوية والتراث والأصالة، إلى فضاء أعم و أشمل بتصوراته الشعرية الحديثة، وبلغاته وثقافته المختلفة. رحيل ستتحرر فيه القصيدة من أي موجه أو دليل يرسم لها الحدود ويحرصها. وستكتفي بلغتها وبمتخيلها الخاص عن الإنسان والأشياء والعالم، مختركة الحدود بلا مرشد ولا دليل، حيث المغامرة نحو المجهول عنوانها الأكبر. فكيف، إذن، يمكن للقصيدة المكتوبة

¹ بنيس، محمد، 201، الشعر العربي الحديث، بنياته وبدالاتها، الجزء 4 : مساءلة الحداثة،، الدار البيضاءK دار توبقال للنشر ، ط 2 ، ص 173.

باللغة العربية أن تكون مكانا لتحقيق الرحيل العصامي نحو المستقبل دون التنازل عن جمالياتها أو عن لغة ميراثها الثقافي؟

إن خروج الشعر العربي، عموما، من حدوده المحلية، وتوجهه نحو الأفق العالمي الواسع، ليس أمرا جديدا على التاريخ الشعري العربي. إذ نعثر على تجارب إبداعية عربية، استطاعت العبور نحو ثقافة الآخر البعيد، انطلاقا من فضائها العربي وخصوصياته اللغوية والجمالية. مثل التجربة الإبداعية للشاعر أبي تمام و أبي الطيب المتنبي و ابن عربي. فهؤلاء الشعراء خبروا جيدا ثقافة الآخر ولغاته، فكان شعرهم حوارا أصيلا، ورحيلا بالإمكانات اللغوية إلى مراتب الإبداع النادر والعجيب. كما يمكننا استحضار تجارب إبداعية غربية مماثلة استطاعت، بدورها، العبور إلى ثقافة العالم العربي الإسلامي، وتوظيفها توظيفا إبداعيا فريدا ومغايرا، مثل أعمال دانتي الايطالي، وسرفانتس الإسباني، فقد استطاعا بعبريتهما النافذة للحدود محاوررة الثقافة العربية الإسلامية. وقد كان حوض البحر الأبيض المتوسط بصفته العربية والغربية فضاء لمثل هذا الحوار والتفاعل الثقافي، الذي تبادلته فيه الأطراف المختلفة قيم الحب والجمال والحق، كقيم يعلو فيها الإنساني ويسمق فوق كل الخطابات والحساسيات المحلية.

ففي فضاء البحر المتوسط المنفتح على ضفتين مختلفتين أمكن للشعر الرحيل نحو العالم الواسع. ومن منطلق هذه التجارب سيعثر الشاعر المغربي محمد بنيس على فكرة الحوار والتفاعل الثقافي مع الآخر، واعتبارها المنطلق الذي يمضي بالقصيدة إلى مستقبلها العالمي. يكتب الشاعر في أحد الكتيبات « وبدلا من الانجرار إلى ما يتعارض مع القصيدة (أو يمنعها)، حولت وجهتي نحو العالم، أبادله التحية والحوار. في فسحة العالم رحمة هي بدورها تعضد مقاومتي من أجل القصيدة وحريتها. وكثير ما دافعت عن هذا الاختيار، لا بالنسبة لنفسي وحدها، بل بالنسبة للشعراء المغاربة الذين كان متخيل مريض، عن أنفسهم وعن سواهم، يحتجزهم. وجهة العالم هي وجهة كل قصيدة حديثة. وهي في الوقت نفسه، وجهة الاختيارات الشعرية الكبرى.... و ابعد ما تعلمت هو أن القصيدة الحديثة لا حدود لها، و ان الدائرة المغلقة التي تزج فيها القصيدة العربية نفسها، بخلاف قصيدة الستينيات في كل من العراق و سوريا ولبنان ومصر، ليست معيار القصيدة الوحيد ولا مسارها الوحيد²»

² بنيس، محمد، 2010، كلام الجسد،، الدار البيضاء، دار توبقال، ط 1 ، ص 147

إلا أن خصوصية الزمن الذي صار أكثر تبديلاً من غيره، و أكثر طيشاً ووحشية بعولمته المتسارعة التي تهدد الإنساني فينا، وتضرب ركن اللغات والثقافات من أجل مصالح نفعية استهلاكية. كل هذا سيجعل من فكرة الحوار والتفاعل الثقافي تحدياً شعرياً، يصعد من حالات التوتر والقلق المصاحب لكل قصيدة تفتح الحوار وتتبادل مع الآخر تحية السلام والاعتراف والقبول. كيف يمكن للقصيدة أن تتخبط بمعجمها وتركيبها العريبيين في تداخل ثقافي محفوف بمخاطر الإقصاء؟ كيف يمكن لها أن تكشف عن جمالياتها، وهي تحتضن الغريب في بنائها اللغوي؟

حركة الأزرق: الضيافة والحوار في لغة الكتابة الشعرية

إن الخرق الذي ستمارسه القصيدة العربية، راحة من فضاء عربي خالص ومحدود نحو فضاء عالمي مفتوح، سيتم من خلال اللغة التي ترحل، بدورها، عن خطابات الهوية و التراث نحو استضافة صوت الآخر القادم من جهات أخرى من العالم. وذلك على شكل أفكار ومعارف تسكن لغة القصيدة على نحو غريب ومثير، فتمضي بها إلى التحرر من الخطابات المحلية إلى فرض شخصيتها وفكرتها النقدية فيما تريده لذاتها، وللقيم الإنسانية الكونية.

وبهذا التوجه نحو فرض أثر الذات ستعلن القصيدة عن مواطن جمالها الخاصة. وذلك بانتصارها لضرورة الشعر في الحياة، وهو يبحث عن الإنساني فينا، ويتعقب مواطنه القصيدة، من خلال تضايق الثقافات واللغات. وسيكون البحر المتوسط المنفتح على صفتين مغايرتين فضاء ممكناً لهذا التجاوب والتفاعل بين حضارات وثقافات مختلفة. فيه تعثر القصيدة العربية على أفقها الجمالي الحداثي، وعلى تسميتها العالمية؛ قصيدة متوسطة منخرطة في الحوار والتفاعل الثقافي، بدلاً عن القصيدة المشرقية أو المغربية. يكتب الشاعر «
وها هي القصيدة العربية في صورة تختلف عما كانت عليه في بداية القرن. إنها الآن تكتسب صفة المتوسطة فيما هي تكتسب مرجعيتها الجمالية. شعراء من أقطار عربية متوسطة، أو غير متوسطة، أصبحوا مهمومين بسؤال الشعر في زمننا، متوجهين نحو الإنساني الذي يشرطنا، لغة و أفكار على السواء»³

³ بنيس، محمد، 2007، الحق في الشعر، مقال: جمالية القصيدة العربية الحديثة في فضاء المتوسط، ، الدار البيضاء، دار توبقال، ط 1، ص 55.

على أساس هذا الإبدال في تسمية القصيدة العربية الباحثة عن مستقبلها وعن جماليتها، تم تشكيل عنوان الديوان « هذا الأزرق»، أي هذا الفضاء المتوسطي، بحدوده المنفتحة على المجهول، وبلغته التي تستضيف الغريب، وتنتصر للشعر وللکلام الراحل من مكان القواعد القسرية ونمطية الأشكال إلى مكان الغموض، الذي يأتي منه الكلام متموجا ومشوبا بأصداء الآخر.

إن فكرة الضيافة التي على كل قصيدة التشبث بأدابها ونشدها، كأثر دال على ذاتيتها وانفتاحها على العالم، ليست بالمعنى النظري القابل للعزل أو الفصل المنهجي عن ممارسة فعل الكتابة، إنما هي حركة لغوية إبداعية تتحقق في صميم فعل الكتابة، يلفها الغموض والأسرار، وتمضي بكتابة القصيدة نحو المغامرة المجهولة، التي لا دليل على كيفية أجرأتها. لذلك يسميها الشاعر في تأملاته الشعرية بالحركة الزرقاء. « ففي الهبوط إلى ظلمات الغريب، تصعد القصيدة باتجاه المجهول. إن الهبوط يتجسد في اللغة والصعود في اللغة. وها هي الحركة الزرقاء تضغط على الصدر وتلقي بنا على أرض هي في الوقت ذاته أرض الأنا و أرض الآخر، داخل حدود لغة الأنا وخارجها»⁴ فممارسة الضيافة في كتابة القصيدة معناها أن تلك القصيدة تحمل في ذاتها تصورها النقدي للضيافة، وتمارسه بشكل غامض ومتحجب.

ومن أجل توصيف شعري لهذه الطبقات المتحجبة، التي ينشأ فيها معنى الضيافة، وظف الشاعر رمز الأزرق توظيفا استعاريا، تتضاعف دلالاته من العنوان إلى باقي أجزاء العمل، جاعلا من ديوانه عملا شعريا فريدا بمتخيله وبيئاته. وقد تجلت فرادة المتخيل في القدرة على تشكيل صورة الأزرق الدال على الأسرار الغامضة التي تنم على استضافة لغة الشعر لثقافة الآخر. وذلك من خلال تراسل فني عجيب بين فنون الكلمة وفنون اللون المستوحاة من فن التشكيل، أو من حرفة تركيب الزليج المغربي، أو من حرفة صناعة تحف الفخار، أو من العمارة المغربية التي مجدت الأزرق على الحيطان وعتبات البيوت والمساجد. بينما تجلت فرادة البناء في القدرة على الرحيل باللغة نسكا ومجاهدة، لأجل المضي بالكلام إلى حالته البكر، حيث يبدو شطحا منفلتا عن قوانين تركيب الكلام.

⁴ بنيس، محمد، 2007، الحق في الشعر، مقال: ضيافة الآخر في القصيدة، دار البيضاء، دار توبقالط 1، ص 35.

المستويات الرمزية للأزرق في بناء الديوان:

يتكون ديوان « هذا الأزرق » من ثلاثة أقسام من القصائد المطولة، وهي نحو الأزرق و من جهة المتوسط و مسرح الأزرق. و تتوزع كل قصيدة إلى قصائد فرعية مرقمة أو معنونة بأسماء نكرة. تكاد علامات الترقيم تنعدم في جل القصائد مع توزيع جديد لفضاء الصفحة، وتنويع في الخطوط. وما يلفت الانتباه أكثر في هذا الديوان هو التوثب الطاعي بين الشعر والنثر، وانصراف الشاعر في مقاطع كثيرة إلى إيراد أخبار عن مكانة اللون الأزرق عند اللغويين والشعراء القدامى، مما جعل فكرة الديوان أقرب إلى التأليف من الإبداع. يتميز المجال الإيحائي للديوان بين ثلاث محطات بارزة. تتحدد المحطة الأولى من خلال قصيدة « هذا الأزرق ». وقد عمد الشاعر إلى تشكيل هذه الاستعارة الاتجاهية، لأجل بناء تصور معرفي يكشف الوجهة المستقبلية للقصيدة، مخترقة محدداتها وحدودها التقليدية نحو فضاء الحوار والانفتاح على ثقافات وشعريات أخرى. وسيبدو الأزرق دالا على أثر القصيدة التي تحمل تصورها الإبداعي في ذاتها، وهي تتوجه نحو البعد الإنساني في لغات وثقافات العالم. يكتب الشاعر في المقطع الأخير من قصيدة « أثر » :

أثر وحده
في يوم يطول
على مقربة من أصابعي
كأنما يأس و أمل معا
من
المسرح
لا حدود بين الأزرق واللأزرق داخلي
ذبذبات مستحيل تتكون
في غرق
هو العروج دائما
يتقد حلم أن أشاهد
الأزرق
بين الأضلاع متدفقا
واثبا
منهمرا في شوارع الأعصاب
جارفا ما انكسر مني
متملكا إرادة أن يهمز النداء
في
ليل
أو

تحدد المحطة الإيحائية الثانية في قصيدة « من جهة المتوسط » وتكشف هذه الاستعارة الاتجاهية، أيضاً، عن الفضاء المتوسطي الذي ستستقي منه القصيدة العربية تسميتها المستقبلية. باعتباره الفضاء الأنسب لممارسة الرحيل والانفتاح بين صفتين مختلفتين. ففي هذا الفضاء ستلقي القصيدة العربية تحية السلام على الشعريات الغربية، تبعث ببطاقة الدعوة لاستضافة الآخر ومحاورة فكره ومعارفه.

ويتشكل الأزرق في هذا المستوى كدال على حالات الغموض القصوى المميزة للغة القصيدة وهي تستضيف الغريب. ستتخلى اللغة عن أرض القواعد والموجهات المعلومة، وتحل بأرض غريبة يتبدل فيها التركيب والمعجم. فينشأ الكلام على غير قواعده السابقة، معيدا اللغة إلى وضعها البكر، حيث الصفاء المشوب بالغرابة المدهشة التي لا عهد لنا بها. يكتب الشاعر في إحدى القصائد الفرعية بعنوان « مطر: » .

كذلك الأزرق في الدروب يبقى تتوارثه الأيدي التي
تتوارث اللحم جدران يضيف علوها عن الشمس بغطاة
يضيء أزرق خطى صبية تكلم نفسها بلكنة أهل الشمال
و أنا أسقط في قرار لا نهاية له من الغبطة

في داخلي عاصفة مطر حركت أصابعي
نحو غامض قلت استتر عن كل ممكن أزرق الجدران
أحسه شبها يسيل كأنما غريب يبذل وجهة الكلام مسلما
جسدي إلى أشعة ظلمة وضعت على عيني عدما هو ما

زلت

أنصت

إليه⁶

⁵ بنيس، محمد، 2015، هذا الأزرق، ، الدار البيضاء، دار توبقال ط 1، ص 16-17.
⁶ بنيس، محمد، 2015، هذا الأزرق، ، الدار البيضاء، دار توبقال، ط 1، ص 90.

تتكشف المحطة الإيحائية الثالثة في قصيدة « مسرح الأزرق » وتحيل هذه الاستعارة إلى الكيفيات التي يتجسد بها أزرق الضيافة في فعل الكتابة. وذلك من خلال التناظر الفريد بين ممارس حرفة الزليج أو الفخار، الذي لا يكف عن البحث عن التشكلات والأشكال الغريبة في تركيب قطع الزليج، أو في صنع تحف الفخار، وبين ممارس كتابة الضيافة، الذي يحول الكتابة إلى مسرح لتجسيد الطرائق و الأشكال الفردية، متخلصا من كل السلط المراقبة للحدود والقواعد. تصبح الكتابة خرقا وانتهاكا جسورا، يمضي بالكتابة لتكون مكانا متعدد الطرائق، سواء من حيث استغلال مكان الصفحة، أو من حيث التصرف الذاتي الحرفي في تركيب اللغة. يكتب الشاعر في قصيدة « مشاهدة »:

ما دمت تشاهد

في

مسرح

أزرق واقفا قرب العين

صفا من الصحون

أو

فرشة الزليج

في الأزرق لألأة

خرير

نغم

لك الأزرق

أوسع

من مساحته

أبعد

مع العين الأنفاس

في صحراء عطشها أقوى من الأمل

من اليأس

كذلك العين تشاهد الأبيض يتحرك

فوق قطعة

كتابك القادم

لن تملأه الكلمات.7

⁷ بنيس، محمد، 2015، هذا الأزرق، ، الدار البيضاء، دار توبقال، ط 1، ص 198

الخاتمة :

ختاماً يظل غموض الأزرق و أسرار انبثاقه سيداً في الكتابات الشعرية و التأملية للشاعر المغربي محمد بنيس، إنه بذلك أحد التجليات الدالة على حيوية الطرائق النصية المنفتحة على الشعرية المختلفة. وعلى انتقال لغة الشعر من لغة التواصل إلى لغة الحوار والإبداع التي ترتقي بالكثافة المعنوية، وتمضي بالقصيدة نحو مستقبلها الشعري العالمي، وهي تتكتب وفق مبادئ الضيافة وتداخل الثقافات.

المصادر :

- 1- بنيس، محمد، 201، الشعر العربي الحديث، بنياته وبدالاتها، الجزء 4 : مساءلة الحداثة، الدار البيضاء دار توبقال للنشر ، ط 2 .
- 2- بنيس، محمد، 2015، هذا الأزرق، الدار البيضاء ، دار توبقال، ط 1 .
- 3- بنيس، محمد، 2010، كلام الجسد، الدار البيضاء دار توبقال، ط 1 .
- 4- بنيس، محمد، 2007، الحق في الشعر، مقال : ضيافة الآخر في القصيدة ، الدار البيضاء دار توبقال، ط1.